مشاهدات الحسن البصري (رحمه الله) في مجتمع الصحابة

بيان لأثر العقيدة الإسلامية في تكوين الجماعة

د. موفق سالم نوري(*)

المقدمة

كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم وسيبقى الأنموذج الأقوم والأمثل في تأريخ هذه الأمة. هذا الجيل الذي عاش وأنشأ دولة الله في الأرض، حاز على التزكية المطلقة من الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[1] وقوله تعالى يمتدحهم (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) سورة التوبة: الآية 100.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)[2] وقال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم (خَيْرُ النَّاسِ قَرنِي ثمَّ الذينَ يَلُونـَهُمْ ثمَّ الذينَ يَلُونـَهُمْ)[3] انهم جيل الخيرية التي لا تحدها حدود، بل تكاد تكون مطلقة، تلبسوا الإسلام، بكل دقائقه في سرهم وعلانيتهم، جسدوا الصدق بأحلى صورة. فقال عنهم الله تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)[4] هؤلاء الرهط مزجوا بين العقيدة وسلوكهم وقلوبهم فكانوا أطيب ثمرة لهذه العقيدة العظيمة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم حيث التقى المثال بالواقع في اصدق تفاعل برهن ان المثال ليس خيالا يجول في الأذهان وان الواقع ليس قوة منفلتة لا يمكن التحكم بها. فحري لمن يبتغي السلوك الأمثل والأقرب لمرضاة الله، وحري لمن أراد ان يفهم معنى الإسلام بشكله الحقيقي، وحري لمن أراد أن يفهم معنى التمكين الإلهي للمسلمين في الأرض، ان يدرس هذا الجيل، يتفحص ويتتبع دقائق حياته ليدرك ما الذي فعله الإسلام في الأرض. وعلى الرغم من كثرة المصادر التي كتبت في حياة هؤلاء الرهط. إلا أن اكتشاف زوايا جديدة لدراسة حياتهم تشكل متعة رائعة تعبر عن كشف جديد يحقق فائدة كبيرة في هذا الباب.

وجاءت مشاهدات الحسن البصري رحمه الله شاهد عيان، عبر خير تعبير عن جوانب مهمة في حياة هؤلاء. فهو التابعي الذي ولد في عام 21هـ لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [5] فنشأ بين الصحابة، وعليهم تتلمذ

---

(2) سورة الفتح: الآية 29.

(3) البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث، 2457 و2458.

(4) سورة الأحزاب: الآية 23.

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: د/ت) 157/7، الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: عدد من المختصين (بيروت:1986) 564/4.

فرسخت في ذهنه صور رائعة من حياة ذلك الجمع المبارك. وجرى لسانه بهذه الصور في مرات كثيرة مبينا روعة ما كانوا عليه من عظمة دين وعمل بهذا الدين. لقد سرت في عروق الحسن رحمه الله بركة عظيمة، هي بركة أم سلمة (أم المؤمنين) حيث كانت تلهيه بثديها إذا ما انشغلت عنه أمه التي كانت مولاة لها، وكانت أم سلمة تخرجه إلى الصحابة رضوان الله عليهم فيدعون له بالبركة، ومن ذلك دعاه عمر رضي الله عنه له بقوله: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس [6]. فعاش بين الصحابة لسنوات طويلة، فكان بارا بهم بما نقله عنهم من صور رائعة جسدت جوانب من حياتهم.

وقد سئل عنه أحد معاصريه، فقيل له: هل تعرف رجل يعمل بعمل الحسن؟ فأجاب: رحم الله الحسن – والله – ما اعلم أحدا يقول بقول الحسن، فكيف يعمل بعمله؟ كان – والله – إذا ذكرت النار عنده كأن لم يخلق إلا لها، وما رؤي قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه، خشية ورجاء لا يغلب أحدهما صاحبه [7]. والحسن اشهر من ان يقال فيه ثقة وصادق وأمين، فذلك أمور مجمع عليه هذا فضلاً عما اشتهر به من ورع وزهد وعلم وخوف من الله تعالى. لذا فإن ما قاله عن جيل الصحابة، وقد عاصرهم، كان شهادات حق صادقة. وهذه الشهادات. وان لم تقترن بأحداث ووقائع بعينها لتتحدث عن أشخاص معينين بل جاءت في إطار الانطباعات العامة، فإن ذلك لا يقلل من قيمتها. بل إن ذلك بحد ذاته ما جعلها اكثر قيمة وأهمية، فكفانا بذلك مؤنة أعمامها على الجيل برمته. فلو ان هذه المشاهدات جاءت مرتبطة بأحداث ووقائع فردية، لما كان من السهولة إخراجها إلى مستوى الإعمام. لقد جاءت

---

(6) وكيع، أخبار القضاة (بيروت: د/ت) 5/2، الذهبي، 565/4.

(7) ابن الجوزي، الحسن البصري (القاهرة: 1931) 18.

هذه الشهادات والمشاهدات خلاصة لتفاعلات الحسن رحمه الله مع جيل الصحابة رضوان الله عليهم. إنها صورة تنبض بحياة فاعلة جسدت روعة الإسلام وهو يتحرك على الأرض بسلوك ذلك الرهط الطيب. وقد توزعت مشاهدات الحسن هذه على الجوانب الآتية:

1. زهد الصحابة وموقفهم من الدنيا

لما كان الزهد يعني الإعراض عن الدنيا إذا أقبلت، كان الصحابة اشد هذه الأمة إعراضا عن الدنيا فقال الحسن رحمه الله: "لقد أدركت ناسا من صدر هذه الأمة كانوا عن الدنيا – وهي مقبلة – اشد أدبارا من إقبالكم عليها وهي مدبرة" [8] ثم يضيف في تفصيل حقيقة زهد ذلك الرهط. فقال رحمه الله: "أدركت صدر هذه الأمة وخيارها وطال عمري فيهم، فو الله انهم كانوا فيما احل الله لهم ازهد منكم في ما حرم الله عليكم. أدركتهم عاملين بكتاب ربهم، متبعين سنة نبيهم، ما طوى أحدهم ثوبا، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر أهله بصنع طعام، كان أحدهم يدخل منزله فإنْ قرب إليه شيء أكل، وإلا سكت فلا يتكلم" [9] وقال: "وان كان أحدهم ليقول: لوددت أني أكلت أكلة في جوفي مثل الأجرة" [10] وقال أيضا: "والله كانوا في ما احل الله لهم ازهد منكم فيما حرم عليكم" [11] تكشف هذه الشهادات مدى الزهد والورع الذي كان عليه الصحابة. فالزهد الحقيقي ليس في ما حرم الله

(8) ابن عربي، الوصايا (بيروت: د/ ت) 242.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: 1977) 272/9.

(10) الاصبهاني، حلية الأولياء (بيروت: 1967) 2/ 146.

(11) ابن الجوزي، الحسن البصري، 61.

تعالى ولا فيما هو شبهة، فذلك فرض واجب على المسلم بحكم التحريم والكراهة. فالزهد هو الرغبة عن الحلال، ان يسمو المرء فوق الحلال أما تعففا أو اتقاء، فكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: كنا ندع سبعين بابا من الحلال خشية الوقوع في الحرام[12]. وذلك ما عبر عن عزوفهم عن زينة الحياة الدنيا وزخارفها، واكتفائهم بما أقام أصلابهم فقط. يقول الحسن رحمه الله: "لقد أدركت أقواما يعرض على أحدهم الحلال فيقول: لا حاجة لي به نخشى ان يفسدنا"[13] ليضيف بذلك سببا آخر في عزوفهم عن الحلال وهو الخوف على قلوبهم ان تقع في الفتنة. ذلك أن أبواب الفتنة في الغنى تفوق في العدد أبواب الفتنة في الفقر. فالفقير إذ ما صبر واحتسب نجا. أما الغني فعليه مجاهدة النفس مجاهدة شديدة حتى يغلبها في هواها، فالغنى يفتح أبواب الشهوات والرغبات والغرائز، المادية منها والنفسية، فقد يفتتن المرء ولا يصمد أمام ذلك. زاد ذلك عفتهم الشديدة. فالعفة والخوف من الفتنة جعلتهم يصرفون اهتمامهم عن المال وان كانت لهم به حاجة يقول الحسن رحمه الله في ذلك: "ان كان أحدهم ليعيش عمره مجهودا شديد الجهد والمار الحلال إلى جانبه يقال له: إلا تأتي هذا فتصيب منه؟ فيقول لا والله لا افعل، إني أخاف أن أتيه فأصيب منه فيكون فساد قلبي وعملي"[14] لهذا فإن الصحابة رضوان الله عليهم لم يروا في الدنيا اكثر من وديعة مؤتمنين عليها، فأدوها – كما هي – إلى من اتمنهم عليها. فقال الحسن في ذلك: "أدركت أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدوها إلى من اتمنهم

---

(12) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم بيروت: د/ت) 252.

(13) ابن الجوزي، الحسن البصري، 68.

(14) ابن رجب الحنبلي، 282.

عليها، ثم ركضوا خفافا"[15] فكأنما لم يجدوا في أنفسهم حق التصرف بهذه الأمانة، ليخفف ذلك عليهم الحساب يوم القيامة.

ويقول الحسن البصري رحمه الله تأكيداً على ذلك:"والذي نفسي بيده، لقد أدركت أقواما كانت الدنيا عندهم أهون من التراب الذي يمشون عليه. لا يبالون أشرقت الدنيا أم أغربت، أذهبت إلى ذا أم ذهبت إلى ذا" [16] فلم يهتموا بما ورد عليهم من الدنيا، ولم تتعلق قلوبهم بذلك، ذلك أن قلوبهم كانت عامرة بحب الآخرة والعمل لها. فقتلوا في أنفسهم الرغبة الغريزية في التطلع إلى التملك والحيازة، وقتلوا في أنفسهم حب التطلع إلى الآخرين لمعرفة ما حازوا من هذه الدنيا، فلم يكن ذلك من رأيهم ولا عن سلوكهم. فسواء حيزت الدنيا لفلان أو فلان، فلم يكن ذلك من شغلهم، لا في الجارحة ولا في القلب. بيد انه لابد من التنبيه على أن ذلك الجيل لم يتخذ موقف سلبيا تجاه الحياة بالانسحاب منها والانزواء بعيدا عن فعالياتها. ولكنهم في الوقت نفسه لم ينفعلوا بها ولم ينغمسوا في أعماقها. لقد حققوا التوازن الدقيق بين حاجات الدنيا وحاجات الآخرة. وان الدنيا ممر للآخرة، فلا لهذا الممر من إصلاحه. فلم يجعلوا الدنيا والآخرة على طرفي نقيض، بل إن أحدهما مكمل للآخر وعلى وفق القياسات الشرعية الصحيحة. فقد أدرك ذلك الرهط ان مهمتهم في الحياة ذات شعبتين: عبادة الله في الأرض أولا ثم قيامهم بمهمة الاستخلاف التي أناط الله بها بني البشر. فلا بد ان يكون لهم دورهم في أعمار الأرض. وعلى وفق المنهج الإلهي الذي ارتضاه لهم. ولما انهم كانوا قائمين على أمر دين جديد كان لا يزال غضا فتيا

(15) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (بيروت: 1983) 652/5، مسكويه، الحكمة الخالدة، تحقيق، عبدالرحمن بدوي (القاهرة: 1952) 151، الغزالي، تهذيب أحياء علوم الدين، تهذيب عبدالسلام هارون (القاهرة: د/ت) 87/2.

(16) الزمخشري، ربيع الأبرار، تحقيق: سليم النعيمي (بغداد: 1984) 1/ 73.

لذا فإن مهمتهم الأساسية تمثلت في إقامة هذا الدين وتوثيق عراه وتمكينه في الأرض. وذلك ما يقضي الانصراف بجهد جهيد إلى هذه المهمة لا يلهيهم عنها بيع ولا تجارة. هكذا تمكنوا من إنجاز مهمة مزدوجة ربطوا فيها بين حياة الدنيا وحياة الآخرة.

ثم تحدث الحسن رحمه الله عن طعامهم فقال: "لقد أدركت أقواما ما يأكل أحدهم إلا في ناحية بطنه، ما شبع رجل منهم طعاما حتى فارق الدنيا. كان يأكل، فإذا قارب الشبع أمسك" [17] التزاما منهم بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب.

ومنها قوله: (مَنْ أصبحَ منكمْ أمنً في سِربـِهِ مُعافى في جَسَدِه عِندَهُ قـُتُ يَوْمِهِ فكَأنـَّما حِيزَت لـَه الدُّنيا) [18] وقوله: (مَا مَلأ آدَمِيٍّ وعَاءً شـَرّا مِنْ بَطـْنٍ حَسْبُ الادَمِيِّ لـُقـَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صـُلـْبَهُ فـَإنْ غـَلـَبَتْ الادَمِيَّ نـَفـْسُهُ فـَثـُلـُثٌ لِلطـَّعَام وثـُلـُثٌ لِلشَّرابِ وثـُلـُثٌ لِلنـَّفـَسِ)[19] وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أشدهم التزاما في هذا الباب. فكان يمر الهلال والهلالان على بيتيه صلى الله عليه وسلم ولا توقد فيه النار، اكتفاء بالأسودين الخبز والتمر[20]. فلم يجعلوا الطعام هما بل وسيلة الكفاف التي تبلغهم اجالهم.

فكما هانت الدنيا عليهم، واستفرغوا منها مشاعرهم، هانت عليهم أرواحهم، فجادوا بها مجاهدين في سبيل الله. فقال الحسن البصري رحمه الله: "لقد أدركت أقواما ما كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه وديناره"[21] فجودهم بأرواحهم أوسع

---

(17) ابن أبي الحديد، 5/ 593.

(18) الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث 2268.

19 ابن ماجة، سنن ابن ماجة، رقم الحديث. 334.

(20) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث 5282. الإمام احمد، المسند، رقم الحديث 8881.

(21)الزمخشري، 1/ 41.

من جودهم بالدرهم والدينار. فهم عشقوا الآخرة، وتركوا عشق الدنيا لأهل الدنيا يعشقوها من فروعها وأصولها. عشقهم للآخرة منحهم زخما هائلا في الاندفاع للقتال في سبيل الله. تفجر في قدرات فوق تصورات العقل والمدركات العقلية التقليدية. ومنذ أول المواجهات مع الكفر. اثبت الواحد منهم، وان كان عبدا، ان بوسعه ان يلحق الهزيمة بأعتى السادة الأحرار وأكثرهم تجبرا وطغيانا. عبد مثل بلال رضي الله عنه لا يملك من الحول والقوة إلا أن يعتصم بصبره بعد اعتصامه بالله، فانتصر ورهطه مثل عمار بن ياسر في مواجهة آلة القهر والقسر والاضطهاد والتعذيب التي مارسها بحقهم سادات قريش، فمنهم من كتب الله له عمرا وأجلا ومنهم من استشهد. وكلاهما انتصر بعدم الإذعان لآلة التعذيب. وهكذا أيضا تمكن المسلمون في معاركهم متصدين لقوى الكفر في معظم مواجهاتهم، على الرغم من التباين الشديد في القدرات والإمكانيات على وفق الحسابات التقليدية في موازين القوى. إذا كانت الموازنات تزيد أحيانا على نسبة الواحد إلى ثلاثة. وعلى الرغم من كل ذلك أفلح المسلمون في مواجهة وتحطيم أعتى الإمبراطوريات أو تقزيمها. هنا ظهرت دلائل التمكين الإلهي للمؤمنين كما وعدهم الله تعالى بقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[22]. فلما اعتمرت صدورهم بالإيمان الغمر لا يجرحه شيء، ولما بذلت جوارحهم العمل الصالح في اطهر واخلص أشكاله، لم يكن الله إلا ليفي لهم ما وعدهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ

(22) سورة النور: الآية 55.

تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [23] فنصرهم الله ومكن لهم دينهم وبدل خوفهم أمنا. فأقاموا دولة الله، دولة الإسلام فصدقوا وصدق الله. فكان أساس ذلك اعتمار الصدور بالإيمان والتوحيد المطلقين بالله لا تشوب ذلك أدنى شائبة. وانهم لم تغرهم الدنيا ولم يعشقوا الحياة لذاتها ولا لزينتها بل جعلوها طريقا سالكة تقودهم إلى الآخرة.

هذه الملامح التي تحسسها الحسن البصري في جيل الصحابة رضوان الله عنهم بدأت تختفي في الأجيال اللاحقة، فكان يخاطب معاصريه مقارنا بين مشاهداته السابقة وما كان يراه من ملامح في أوقات لاحقة. فقال في ذلك: "أدركت عشرة آلاف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لو رأوكم لقالوا: ما لهؤلاء مجانين؟ مجانين لأنهم استبدلوا دنيا بالآخرة. استبدلوا فان بباق ٍ، رخيصا بثمين، وذلك لا يفعله العقلاء" ولوا رأيتموهم لقلتم: هؤلاء مجانين" لأنهم لم يأبهوا للدنيا ولم يأخذوا بالتجمل والتزين لها، حتى بدا كأنهم مجانين لا يقدرون قيمة ما اعتقده أهل الدنيا ثمينا في دنياهم "ولو رأوا خياركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب" فإذا كان هذه حال من يرجى خيره، فكيف هو حال غيرهم؟ فقال الحسن: "ولوا رأوا شراركم لقالوا ما لهؤلاء عند الله من خلاق"[24]. فليس عند الله ما يرحمهم به. ومما قاله في هذا الباب أيضا، مؤكدا ذات المعني: "رأيت سبعين بدريا، لو رأيتموهم لقلتم: مجانين. ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق. ولو رأوا شراركم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب"[25]. ان استحضار مثل هذه المقارنات الآن،

---

(23) سورة محمد: الآية 7.

(24) القرطبي، البدع والنهي عنها، تحقيق: محمد احمد دهمان (دمشق: 1980) 62.

(25) ابن الجوزي، الحسن البصري، 59، انظر أيضا:الاصبهاني، 2/ 143.

يكشف لنا عن القدر الهائل من الجهد الذي تحتاجه الأمة لتقليل الهوة القيمية والأخلاقية الكبيرة التي تفصلها عن ذلك الرهط الطيب وذلك عائد إلى طبيعة الهدي الذي اهتدى به الصحابة، والهدي الذي تأخذ به الأمة الآن باستعارة الأفكار والنظريات والمفاهيم من الغرب الكافر.

2. الحياة الروحية لجيل الصحابة

وصف الحسن رحمه الله منهج الصحابة في عباداتهم وصفا إجماليا بقوله: "ان المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها. وأفضى يقينها إلى قلوبهم. وخشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم. وكنت – والله – إذا رأيتهم رأيت قوما كأنهم رأي العين. فو الله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل.ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله، ولا اظهروا ما ليس في قلوبهم. ولكن جاءهم عن الله أمر فصدّقوا به فنعتهم الله تعالى في القرآن أحسن نعت فقال: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)[26]"[27] هذا الجانب الأخلاقي الرائع نبع بلا ريب من قلب معتمر بخشية الله. هذه الخشية جعلتهم على قدر كبير من التواضع.فإذا مشوا على الأرض تحسسوا ان لا يلحقوا بها ايلاما. فإذا حاط بهم جاهل لم يزيدوا أن يقولوا له: سلاما. ويقول الحسن في تفسير هذه الآية: "إن المؤمنين قوم ذُلل، ذلت منهم – والله – الأسماع والأبصار والجوارح. حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرضى رأيتهم – والله – لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل

---

(26) سورة الفرقان: الآية 63.

(27) ابن الجوزي، الخشوع في الصلاة (القاهرة: 1341هـ) 5.

غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة: فقالوا: الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن. أما – والله – ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة. ولكن أبكاهم الخوف من النار"[28] هذه الشهادات تعني التحقق التام للعودية والذلة لله في القلب والجوارح التي اعتمرت قلوبهم، وهذا التوافق بين القلب والجوارح في الخوف والخشوع لله عبر عن الصدق وصدقهم عبر عن إخلاصهم التام لله مبتعدين كل البعد عن الوقوع في شيء من الرياء.

هذا الإخلاص التام لله – في القلب والجوارح – عبر عنه الحسن رحمه الله في اكثر من شهادة، فقال: "لقد صحبت أقواما، ان كان أحدهم لتعرض له الكلمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، ما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وان كان أحدهم ليمر فيرى الأذى على الطريق ما يمنعه ان ينحيه إلا مخافة الشهرة" [29] وربما اعترض معترض على ذلك محتجا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم (الإيمان بِضعٌ وسبعُونَ أو بِضعٌ وستونَ شُعبة فَأفْضلُها قَوْلُ لاَ إلـه إلا اللهُ وأدْنـاهَا إماطَـةُ الأذى عَنْ الطَّريق والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإيمان) [30] فأين الصحابة من هذا الحديث؟ فنقول: نعم ان ما قصده الحسن هنا ما كان يبعث على الشهرة من رفع أذى كبير ملفت للنظر. ذلك ان العمل الذي يبعث على الشهرة يستدرج المرء إلى الفخر والإعجاب بالنفس ومن ثم الوقوع بالرياء، والرياء بما هو معروف (شرك أصغر). وفي ذلك قال إبراهيم ابن أدهم. وهو من كبار الموصوفين بالزهد: "ما

(28) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (بيروت: 2000) 3/ 329.

(29) ابن أبي الحديد، 1/ 400، انظر أيضا، الغزالي، تهذيب إحياء علوم الدين، 112/2، الزمخشري، 3/ 182.

(30) مسلم، رقم الحديث 51.

صدق الله عبد أحب الشهرة"[31]. فما يبعث على الشهرة يبعث على الغواية أيضا أمام صاحبه، فأرادوا بذلك التحصن لأنفسهم.

ومما شهد به الحسن رحمه الله قوله في هذا الشأن أيضا: "ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه. ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في صلاتك واحسن خشوعك؟ فقال يا أبن أخي وما يدريك أين كان قلبي" [32]. مشيرا بذلك إلى أمرين الأول: إخفاؤهم لأعمالهم إخلاصا لله تعالى متجنبين الشهرة والرياء والمدح والثناء بوصفها جميعها أبواب فتنة، وانهم ثانيا: كانوا لا يزكون أنفسهم في أعمالهم مؤمنين إيمانا عميقا انه لا يزكي الأنفس إلا الله. ومؤمنين إيمانا عميقا ان المرء لا يدخل الجنة بعمله، مهما زكى، بل برحمة الله تعالى فتحاشوا المباهاة بأعمالهم حتى لا يحبطها الله. فقال عنهم: "كانوا لحسناتهم أن ترُد عليهم أخوف منكم ان تعذبوا على سيئاتكم"[33] غير معتدين بعملهم فكانوا أشد خوفا ان ترد عليهم أعمالهم ولا يقبلها الله، من أصحاب العمل السيئ ان يعذبوا به. وذلك مبلغ كبير، ولا شك، في الخوف من الله كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

كيف كانت قلوب هؤلاء الرهط؟ يقول الحسن: "وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم"[34] فكانت بصيرتهم اشد وضوحا من مشاهدات العيان لمن جاء بعدهم. ومن يبصر بقلبه فإنما يبصر بنور الله تعالى ومصداق ذلك في الحديث القدسي: (وما يَزَالُ عَبدي يَتـقرَّبُ اليَّ بالنـَّوافِل حتـَّى أُحِبّهُ فإذا أحبَبْتـُهُ كـُنـْتُ سَمْعَهُ

(31) ابن أبي الحديد، 1/ 401، الذهبي، 7/ 393، الاصبهاني، 8/ 20.

(32) ابن الجوزي، الحسن البصري، 43.

(33) السابق، 62، انظر أيضا: الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: د/ ت) 3/ 155.

(34) ابن الجوزي، الحسن البصري، 61.

الذِي يَسمَعُ بِـهِ وبَصَرَهُ الذِي يُبصِرُ بِـهِ)[35] وذلك ما زاد قلوبهم رقة. ومن رق قلبه لله، فقد أدرك السبيل، قال الحسن: "كان من كان قبلكم أرق منكم قلوبا وأصفق منكم ثيابا، وانتم ارق منهم ثيابا واصفق منهم قلوبا"[36] وهي المقارنة التي تشير إلى بدء انقلاب الموازين بين الدنيا والآخرة. فإذا رقت القلوب لله خشنت الثياب لأنها من شأن الدنيا. فإذا رقت الثياب كان ذلك دالاً على قسوة القلوب. وكيف لا ترق قلوبهم لله وقد دأبوا على ما وصف الحسن: "أدركت صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله ان يتقبلها منهم، وإذا عملوا السيئة سأتهم وسألوا الله ان يغفرها لهم"[37] وكانوا يخفون على أوقاتهم ان تكون أوقات غفلة فتذهب هدرا، فحرصوا على هذه الأوقات حرص البخيل الشحيح المتمسك بديناره ودرهمه، فقال الحسن: "أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم اشد منكم تحفظا على دنانيركم ودراهمكم"[38].فكان جدهم في العبادة لا يجاري بقوله: "والله لو ان رجلاً منكم أدرك ما أدركت من القرن الأول، ورأى من رأيت من السلف الصالح لأصبح مهموما، وأمسى مغموما، وعلم أن المجد منكم كاللاعب، والمجتهد كالتارك"[39] وذلك يشير إلى مبلغ ما كانوا عليه من العبادات مع أنهم لم يكونوا رهبانا منقطعين عن سبيل الحياة. بل أن لهم سيوفا كانت أمضى

---

(35) البخاري، رقم الحديث 6021.

(36) الجاحظ، 3/ 170، ابن الجوزي، الحسن البصري، 68.

(37) الجاحظ، 3/ 135 – 136.

(38) الفاسي، شرح الحكم العطائية، تحقيق: احمد زكي عطية (القاهرة: 1971) 312.

(39) ابن الجوزي، الحسن البصري، 61.

سيوف عصرهم بشدة وبأس الأيدي التي أمسكت بها. كما أنهم زرعوا وحصدوا وباعوا واشتروا. إلا أنهم لم تكن لهم أوقات غفلة فمزجوا بين العبادة وجد العمل.

هؤلاء الرهط لما عظمت الجنة في قلوبهم، ولما عظم الخوف من الله في نفوسهم، هانت عليهم الصعاب، سواء في تركهم الشهوات والرغبات الجامحة، أو في قيامهم بالعمل الصالح بالغا ما بلغت شدته. فقال الحسن رحمه الله: "والله ما تعاظم في نفوسهم ما طلبوا به الجنة حين أبكاهم الخوف من الله تعالى" (40) وقال: "لقد مضى بين أيديكم أقوام، لو أنفق أحدهم عدد الحصى لخشي ان لا يُقبل منه، ولا ينجو، لعظم الأمر في نفسه" (41) انهم كانوا يأملون رحمة الله. فتعلقت قلوبهم بذلك لا بأعمالهم.

وكانوا اصدق الناس في أعمالهم. من حيث صدق الهمة ومن حيث مطابقتهما لما كانوا يعملون من علم. ومطابقة علانيتهم لسريرتهم. وعن ذلك قال الحسن: "رحم الله القوم، كانوا فقهاء علموا انه لا يكون عمل حتى يكون بدوه هما"(42) فالعمل يحتاج إلى همة صادقة وعزيمة خالصة في النفس تشكل عامل تحفيز لصدق العمل. وعلى هذا السبيل أيضا قال الحسن رحمه الله: "لقد أدركت أقواما كانوا أأمر الناس بالمعروف آخذهم به، وأنهى الناس عن المنكر واتركهم له. ولقد بقينا في أقوام أأمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه" (43) فذلك يكشف صدق المطابقة بين الصدق والعمل، وذلك من المسائل الأخلاقية المهمة جدا التي ميزت عصر الصحابة من غيره. فجاءت فعالهم

---

(40) الاصبهاني، 2/ 153.

(41) ابن الجوزي، الحسن البصري، 38، الغزالي، مكاشفة القلوب (بغداد: 1987) / 257.

(42) المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، تحقيق: مرغريت شمث (لندن: 1940) 13.

(43) الاصبهاني، 2/ 154.

مصداقا لأقوالهم، في توحد وانسجام بين الجوارح مع بعضها وبينها وبين القلب. جعلت كل صحابي متسقا في تكوين دل على الانسجام التام في شخصيته في مكوناتها المختلفة. ليأتي ذلك في إطار انسجام كوني كلي وشمولي. في حركة الكون الدالة على العبودية المطلقة الخالصة لله تعالى. فكان ذلك أنموذجا فذا لا يتأتى إلا للنفوس المنسلخة عن المعطيات الغريزية الشهوية الفردية لتنسجم في تكون واحد لتكون جزءا من ذلك الكل الهائل الذي يسبح الله تعالى في نسق دل على التذلل والحمد لله، فقهنا ذلك أم لم نفقهه، أنظر قوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)[44] وتفصيلا قال تعالى: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)[45] وقوله: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)[46] هكذا أيضا كان جيل الصحابة اجتهدوا جهدهم في إطار العبودية الكونية المطلقة لله تعالى.

لقد أدرك ذلك الجيل ما للعلم من فضل كبير في تقويم السلوك الإنساني. والعلم الذي نشدوه هو أن يفقهوا ما أراد الله وما نهى عنه. فذلك ما يبقى على الدوام، منذ أن بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم نبيا وحتى قيام الساعة، المعيار الوحيد لتقويم حياة الإنسان في سلوكه وعمله وحاجاته وكل الجزيئات ذات الصلة بحياته. فأدرك ذلك الجيل أنه لا صلاح للحياة إلا بمثل ذلك العلم. فقال الحسن رحمه الله: "أدركت قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: من عمل بغير

---

(44) سورة الإسراء: الآية 44.

(45) سورة الرعد: الآية 13.

(46) سورة الأنبياء: الآية 79.

علم كان ما يفسده اكثر مما يصلحه"[47] فإذا حصلوا على ذلك العلم لم يتخذوه زينة ولا جعلوه تفاخرا بينهم، بل جعلوه سننا لحياتهم دلت على سمو المعرفة ورقي السلوك، يقول الحسن البصري: "كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث ان يرى ذلك في تخشعه وزهده ولسانه وبصره"[48]. فكان العلم خير دليل إلى المزيد من خشية الله أولا، عملا بقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)[49] ودلـّهم ثانيا على أن ما يستحق أن يسعى له الإنسان بجد في ليله ونهاره، على حد السواء هو الآخرة وهو ما عبرت عنه شهادة الحسن بقوله: "ان العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا، ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها. وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لآهل العلم رغبة في علمهم"[50].

3. الأخوة الإسلامية

جاء الإسلام ليؤكد على حقيقة ساطعة هي ان الأخوة في العقيدة تسمو وترتفع فوق كل العلائق والروابط الأخرى، مهما كان الذي يغذيها. لأنها ترتقي إلى فعل العقل تتخلى عن الغريزة أساسا لهذه العلائق. وكان لنظام المآخاة الذي أوجده الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة الأثر البليغ الذي أنضج في نفوس هؤلاء الرهط الأخوة الحقيقية في إطارها العلمي، تجسيدا لعقيدة حية

---

(47) الراغب الاصبهاني، محاضرات الأدباء (بيروت: د/ ت) 4/ 414. الابشيهي، المستظرف من كل من فن مستظرف (القاهرة: د/ ت) 20/1.

(48) الذهبي، 4/ 583.

(49) سورة فاطر: الآية 28.

(50) الجاحظ، 3/ 136.

عميقة نبضت في عروقهم. فبدون هذه الأخوة تفقد العقيدة حيويتها وفاعليتها، لتتحول إلى شيء يروى (على الحكاية) وليس على أساس النبض الحقيقي لفعل العقيدة في السلوك. وذلك ما أدركه الصحابة رضوان الله عليهم بعمق وصدق ومارسوه في أروع صورة. فقال الله تعالى واصفا ذلك عنهم: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)[51] انظر شهادة ذلك فيما نقله الحسن رحمه الله: "ولقد رأيت أقواما يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتا، فيقول: لا اجعل كل هذا في بطني، ولأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق ببعضه، وان كان هو أحوج ممن يتصدق به عليه" [52] وهو ما اخبر عنه المولى بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [53] فكان الرجل منهم يربي أهله على ذلك ويؤكد عليهم، يقول الحسن: "أدركت أقواما كانوا يعزمون على أهليهم ان لا يحرموا سائلا ولا يردوا خائبا" [54] وبلغ من شدة تعاضدهم وتكاتفهم قول الحسن: "كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه" [55]. وانظر هذه الصورة

---

(51) سورة الفتح: الآية 29.

(52) الاصبهاني، 2/ 134.

(53) سورة الحشر: الآية 9.

(54) ابن الجوزي: الحسن البصري، 22.

(55) الغزالي، تهذيب أحياء علوم الدين، 1/ 2251، ابن الجوزي، الحسن البصري، 22.

أيضا بقول الحسن رحمه الله: "كنا نعد البخيل فينا الذي يقرض أخاه الدراهم، إذ كنا نتعامل بالمشاركة والإيثار" [56] فكان إذا علم أحدهم في أخيه خلة أو حاجة لا يقرضه، فكان ذلك في عرفهم بخلا، بل كان يمنحه ويعطيه إثره له على نفسه، أو بوصفه شريكا له فيما يملك، فذلك ولا شك، سموا لا مثيل له فاق كل المفاهيم السائدة بشأن الملكية وصلتها بالعلاقات الاجتماعية.

ان تعاضد الصحابة هذا وتكافلهم، لم يكن في الجوانب المادية والدنيوية، بل كان حرصهم ابعد من ذلك فحرصوا على أن يمنح بعضهم البعض فرص الأجر والثواب الآخرون. فإذا عمل أحدهم عملا صالحا لله تعالى فيه أجر وثواب، سعى إلى إشراك أخيه المسلم في ذلك الأجر والثواب. فمما شهد به الحسن رحمه الله على ذلك قوله: "ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يصوم، فإذا كان عند فطره، مر على بعض إخوانه فيقول: آني صمت هذه اليوم وأردت – ان يتقبله الله مني – ان يكون لك فيه حظ فهلم شيئا من عشائك. فيأتي الآخر بما تيسر من ماء وتمر، فيفطر عنده، يبتغي ان يكسب أجرا، وان كان غنيا عن الذي عنده"[57].

ثم انظر روح الصدق والصفاء في شهادات أخرى. يقول الحسن البصري: "قد كان من كان قبلكم من السلف الصالح، يلقى الرجل الرجل فيقول: يا أخي ما كل ذنوبي أبصر، ولا كل عيوبي اعرف. فإذا رأيت خيرا فمرني، وإذا رأيت شرا فانهني"[58] وهذا ما يعكس طبيعة الصدق والنقاء المتبادل بين أفراد ذلك الرهط، وهو ما يعكس صدق توجههم إلى الله تعالى في التخلص من كل ذنب أو أثم أو

---

(56) ابن الجوزي: الحسن البصري، 22.

(57) نفسه.

(58) السابق، 62.

خطيئة، فاستعانوا على أنفسهم ببعضهم يبصرونهم أحوالهم. هذا فضلا عن سلامة الصدر تجاه بعضهم البعض فيقول الحسن رحمه الله: "رحم الله أقواما كان إذا لقي أحدهم أخاه فسلم عليه. علم ما وراء ذلك منه سليم" [(59)] وكان من عمق الصلة والحب لبعضهم، انهم لا يعدون أنفسهم أسرا عديدة، بل أسرة واحدة في رعاية بعضهم. لا يتكلفون ذلك ولا يتصنعون، بل هو ثمرة ذلك الجهد. وتلك التربية التي مارسها معهم النبي صلى الله عليه وسلم فيقول الحسن البصري رحمه الله: "أدركت أقواما وان الرجل فيهم ليخلف أخاه في أهله وولده أربعين سنة بعد موته" [(60)]. يسد خلتهم ويقضي حاجتهم ويتعهدهم بالرعاية لا يمل من ذلك وان طالت عليه السنوات، فانهم لم يملوا المعروف والإحسان.

كانوا رضوان الله عليهم خير رهط لخير نبي جاء بخير الرسالات كلها. فأثمر ذلك أنموذجاً فذا لا تكاد ترى له مثيلا، هو صُنع العقيدة في النفوس. حيث توحدت العقيدة والنفوس في تكوين واحد. كان أروع ما تجسد على هذه الأرض في تأريخ البشر.

---

(59) الزمخشري، 2/ 323.

(60) ابن الجوزي، الحسن البصري، 22.

Abstract

Al-Hassan Al-Basri Observations (God many have merey upon him) in the world of prophet's companions.

Dr. Mofik S. N. [*]

No longer time Al-Hassan Al-Basri had lived in the world of prophet's companions,. He was a good observer of the moral principles they enjoyed and their relations. He preached the citizens whom he lived with after he had seen the in appropriate behaviours were growing in that society and this had harmed him so much.

These observations were divided in to: their austerity and their position towards life, the moral life of the companions and the Moslim brethren-These are no more than impressions on the life of companions.

(*) College of Arts / University of Mosul.